المنهج الموضوعاتي ... بين النظرية والتطبيق

الدكتور جعيرن ميهوب – جامعة الاغواط – الجزائر

إنّ إشكالية المنهج في النقد العربي تصنع مشهدا مرتبكا في كثير من النظريات النقدية ، هذا في رأينا أنتجه المفهوم غير الموحد للمصطلحات النقدية خاصة الوافد منها إلى أقلام وعقول النقاد والقراء على حد سواء. لذا سنحاول في هذا المقال إبراز إشكالية هذا (المنهج الموضوعاتي) منهج ظهر في أوروبا وامتد إلى النقد العربي في صور مختلة . والبداية هي مع تتبع مصادره وأسسه الفلسفية والفكرية.

مصـــــادره:

إن مصادر المنهج الموضوعاتي ،انبثقت من المفاهيم الجديدة حول نظام نقدي يتفرد بنظرة خاصة للأثر الأدبي ، كان لغاستون بشلار (1884 -1962) السبق في إرساء أسسها "1، ويظهر ذلك من خلال استقصائه لمعرفة المعرفة، وإدراك العلم وملاحقة فينومينولوجيا الأشياء والكلمات "2، وجهته في ذلك تعتمد أساسا على البحث في اصل الصورة أي يبحث في أصول الصورة البشرية العامة فيراها ماثلة في العناصر الأساسية الأربعة في الطبيعة وهي الماء، الهواء ،النار، التراب "3 .ومن هنا يربط بشلار بين الصورة الشعرية كإبداع فردي والحقيقة الحلمية التي تعيد كافة الأحلام عند البشرية جمعاء إلى هذه العناصر "4. إذا هذه من أوائل الأفكار التي استمد منها النقاد الموضوعاتيون منهجهم النقدي، باعتبارها تهتم بالموضوع وتجعله يحتل مكان الصدارة في أي دراسة او تحليل.

ان ظهور المنهج الموضوعاتي كان مع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، مع ما حملته الآراء النقدية الفرنسية، التي تطور معها الدرس الموضوعاتي في ظل الألسنية والبنيوية ، فقد حاول ان يحافظ على استقلاله تجاه المناهج النقدية التقليدية والحداثية ، وذلك باتخاذه منحى جديد يعتمد على وسائل مختلة في الدرس والتفسير للأعمال الإبداعية ، حيث يحصر الاهتمام بالكامل في تشكل معاني الموضوعات. وكانت هذه الرؤية ضمن حركية النقد الجديد، حيث كان النقد حينئذ منشغلا باهتمامات ذات طبيعة موضوعاتية ، منها ماهو فينو مينولوجي ظاهراتي "5، ويمثله كل من غاستون بشلار وجورج بولي ،ومنهاماهو سيكولوجي ويمثله شارل مورون و ما هو سوسيولوجي ويمثله لوسيان قولدمان "6

هذا يعني إن النقد الموضوعاتي استمد أصوله من فلسفة جديدة تسعى الى تخليص النظرة النقدية من موروث الأحكام التقويمية التي تستند إلى أسس لا ترتكز على تفسير العمل الأدبي في حد ذاته ، بل تتجه إلى قرائن ثانوية قد لا تفيد في النقد والتحليل. وتقر الناقدة الفرنسية آن .موريل " أن أصول هذا المنهج تبلورت من أفكار بشلار وآرائه ، خاصة في كتابه نفسانية النار الذي أكد فيه على أن الأولوية تكون للتفكير والإبداع الحسي المرتبط بالإرادة والذي سماه بالتصور المادي الخاص بالعالم المحيط بالأديب "7 أي العمل الأدبي مرتبط في جوهره بعالم الأديب الفكري والروحي ، ومتأثر بمحيطه الخارجي بكل تفاعلاته التي تنعكس في الإبداع ، غير ان " الشعر (يبقى) ظواهرية للروح أكثر منه ظواهرية للفكر "8 بمعنى ان الشعر يناسب التعبير عن المشاعر والعواطف والروحانيات في عمومها ، أكثر ما يعبر عن الفكر المنطقي والعلمي المجرد ، التي تتخذ من النثر وسيلة انسب للتعبير عن حقائق العلم و المنطق والعقل .

لقد استخدم النقاد الفرنسيون اصطلاح تيماتيك لكل دراسة تبحث في شبكة الأفكار الملحة في نصوص كاتب ما ،او (الفكرة) المسيطرة على كتاباته كلها ، اي العناصر الكلية والجزئية المهيمنة على عمل هذا الأديب او ذاك ، وقد كان لهذه الدراسات النقدية الفرنسية الفضل في توفير آليات جديدة للتحليل والكشف من خلال المنهج الموضوعاتي .

يعد الناقد الفرنسي **جون بيير ريشار** ابرز من أرسى قواعد هذا المذهب النقدي ، وان كانت إرهاصاته بدأت قبل كما سبق واشرنا . فريشار رسم في دراساته النقدية علامات دالة على منهجية هذا المبدأ النقدي حيث اعتبره " مسح الحقول الحسية ، من اجل تحديد أهم الخيارات الشخصية الفاعلة فيها ، وبيان كيفية ارتسام دلالات الأشياء المرغوب فيها على كل مستوى من هذه المستويات المنقودة ، وبيان كيفية ارتسام دلالات الأشياء المرغوب عنها والمستبعدة "9 وهو بذلك يميز بين خيارات الإبداع من حيث تحديد دلالات الأشياء سواء ما تكرر من جراء الرغبة في إظهاره والإلحاح عليه ، او ما تكرر دالا على النفور و عدم الرغبة لأسباب ما. ومن ذلك كله يتجلى ظهور المنهج الموضوعاتي –قبل ان تتبلور خطته – على تصورات مزجت بين المناهج المعروفة مثل المنهج الاجتماعي ، المنهج النفسي والآراء الظاهرتية اذ لم ينفي مؤسسوه استفادتهم من الدراسات المذكورة ، فقد اقر ريشار تلك الاستفادة من الدراسات النفسية حين قال "الجذريون (يقصد الموضوعاتين) لا ينفون العلاقة بين علم النفس والنقد الأدبي "10 هذا يعني بصريح العبارة أن النقد الموضوعاتي نظريات علم النفس في النقد والتحليل، وأكد في السياق ق نفسه استعانتهم بكل المحاولات النقدية ، إذ يضيف ريشار مؤكدا على ذلك "إننا نستعين بكل المحاولات العلمية لالتقاط النبض الأساسي للنص الذي نعتبره واقعا حيا "11 بل ان رواد هذا الاتجاه لا يخفون مسالة انفتاح ممارساتهم

النقدية على كل المناهج"12، هذا الانفتاح يعني الاستفادة مم توفره النظريات الحديثة من وسائل تحليلية تساعد الناقد الموضوعاتي على مباشرة الموضوع المنقود من الزاوية المناسبة التي تفيد النقد والتحليل.

وبهذا تتجلى المصادر الفرنسية للنقد الموضوعاتي ، التي يرجع لها الفضل في تطوير هذا المنهج النقدي الحديث وإرساء قواعده ن حيث تكاملت إرهاصات بشلار وقوانين ريشار وقواعده مع ما بينهما من آراء نقدية جادة في هذا الميدان ن لبلورة منهج نقدي جديد كانت بدايته نظرية اجتهد أصحابها في رسم قوانين وأصول المنهج ثم تبع ذلك ممارسات نقدية تطبيقية سنشير اليها لاحقا

أما **عن المصطلح وإشكالية التسمية** فهذا الالتباس في ترجمة المصطلح الفرنسي thème إلى اللغة العربية ، فقد اجتهد المترجمون واختلفوا في التسمية ،منهم من أطلق عليه تسمية النقدالمداري وآخرون وصفوه بالنقد الجذري و بعضهم بالنقد التماتي. لعل السبب في عدم الاتفاق على مصطلح موحد لهذا المنهج النقدي،يعود إلى الاضطراب الخاص في تحديد آليات النقد والتعامل مع النصوص وفق المنهجية الموضوعاتية التي ابتكرها نقاد الغرب ، ووضعوا لها إجراءاتها التطبيقية

إذا ما هي الموضوعة ؟ وما هي فروعها وفروع فروعها ؟

1:مفهوم الموضوعة:

ان الغاية في الأساس هي تحديد مفهوم الموضوعةTHEME ، لكن على الرغم من ذلك فقد تعددت التعريفات واختلفت بحسب فهم أصحابها ، فجاء مفهومها عند بروست :"هو الجمال الخفي في العمل الأدبي وهو صنعة غير معروفة في عالم ليس له مثيل "13، معناها عند تودوروف فهو :" مفهوم اختزالي يوحد

المادة اللفظية للعمل الأدبي "14 ، وعند جون بول فيبير :" هي حادث أو موقف يمكن أن يظهر بصورة شعورية أو لاشعورية في نص ما بصورة واضحة أو رمزية ، فهي تقارب العقدة في التحليل النفسي "15 وعند جون بيير ريشار فمفهوم الموضوعة يعني :" مبدأ تنظيمي محسوس ، او ديناميكية داخلية ، او شي ثابت يسمح بالتشكل والامتداد ، أما النقطة المهمة في هذا المبدأ تكمن في تلك القرابة السرية ؛ في ذلك التطابق الخفي والذي يراد الكشف عنه تحت أستار عديدة "16 كل هذه التعريفات تضع الموضوع في المقام الأول ، ويكون هو المبدأ الذي تلتقي عنده كافة المفاهيم ، اذ يعد نقطة الانطلاق والعودة في أي عملية نقدية ، حيث منه تبدأ واليه تنتهي .

هذه المفاهيم التي حاول أصحابها تعريف الموضوعة من حيث هي مختلفة عن الموضوع إذ إن الموضوعة تعني شيئا في سياق وتعني شيئا آخر في سياق أخر ، بالنقل مما وضعت له في الأصل أي (الغرض) إلى ما لم توضع له في الأصل أي الموضوعة ، اذ تقترب الدلالة والوظيفة عند الموضوعاتيين من وظيفة العلامة ودلالاتها عند السميائيين .هدا الإجراء والخصوصية ينطبق على موضوعات نصوص الصوفية التي تعبر في سياقات نحوية لتدل على شيئ آخر في سياقات غير نحوية "17 ، أي تستعير الغرض ليتحول إلى موضوعة ، وهذا ما سنفصله في حينه

2- فروع الموضوعة :

تعد الموضوعة الرئيسية شجرة والموضوعات الثانوية أو الجزئية أو الفرعية غصونها ، حيث تتفرع عن هذه الغصون فروع صغرى تتشظى هي الأخرى إلى وحدات أخرى غير متناهية الدلالة ، فالأعمال الأدبية التي صار الغرض موضوعة

تتدرج في بنائها من الكلية إلى الجزئيات ، من الأصغر غالى الأصغر منها ويمكن التعرف عليها حسب الترتيب من الكل الى الجزء ، وهي كما يلي :

أ- **الرئيسية (الكلية):**

وتعني المعنى او المقولة المهيمنة معنويا على العمل الأدبي ، فهي تساعد في العثور على القصد الأساسي للأديب ، لا العنصر الكلي المهيمن على معاني الموضوع الذي أنتجه هذا الأديب او ذاك وهذه الظاهرة وهذه الظاهرة الموضوعاتية تتجلى بشكل واضح في الأدب الصوفي وهو ما نكتشفه لاحقا في نصوص العفيف التلمساني الصوفية ، التي صار الغرض فيها موضوعة ، فقد اعتبرنا أشعاره الصوفية نموذج تطبيقي إلى ما نشير إليه نظريا . غير إن هات الموضوعة الكلية هي نفسها تتشكل من جزيئات تؤلفها ، تدعى تلك الجزئيات بالموضوعات المساعدة أو كما سماها تودوروف في كتابه نظرية الأدب بالموضوعة الجزئية .

ب–الموضوعـــة الجزئية :

هي مجموعة من الموضوعات الفرعية المترابطة رحميا من حيث المعنى بالموضوعة الكلية ، وتتشكل في مجموعها الموضوعة الرئيسية لموضوع ما ، في عمل أدبي ما ، وفي السياق نفسه تعرف موريل " الموضوعة الجزئية أي بانتا اقل شمولية من الكل وأكثر أهمية من الحافز ، قوتها المعنوية في اتحادها ، وأهميتها في تموقعها ، داخل الموضوعة الكل " 18

فالغرض حين تحوله إلى موضوعة تتشظى معانيه الى جزئية معنوية ذات دلالات معينة يحددها السياق العام ، فتلك الصفة المعنوية تدفع الدارس الى عدم قبول المعاني دفعة واحدة ، بل يربطها معنويا باشكالها الثانوية ويتدرج معها من

الكل إلى الجزء إلى جزء الجزء وبعبارة واحدة نقول : الموضوعة الجزئية تعد الجزء الذي يؤلف الكل ، وتساعد في تحديد وجهة الأديب وتعبر عن فحوى أفكاره وعن معالم قصيدته الفكرية والعقائدية ، حتى الاجتماعية والنفسية ، لكن الموضوعة الجزئية هي نفسها تتشكل من وحدات اصغر ، وتسمى بالحوافز .

ج –الحوافز :

وتعني بها الجزئيات الأصغر في العمل الأدبي ، أي الموتيفات "19 أو ما يعرف بالحوافز "20 او الحوار كاو الترسيمات "21 فقد " ميز ريشار من الموضوع عنصر أكثر خصوصية ومحسوسية وهو الحراك وهذا العنصر ينتشر على امتداد العنصر الأدبي ؛بمعنى أن يتكرر ويرتبط ويتسجل بطريقة متميزة "22 أي أن الحافز ميزت التكرار والامتداد والانتشار في العمل الأدبي ، إذ يشكل نتوءات معنوية تتكرر بشكل ملح في اثر الأديب.. لكن حسبما ذكرناه ، من الجوانب النظرية التي تطورت عند النقاد إلى منهج نقدي تقليدي طال الكثير من أعمال الأدباء الكبار وتجلى على شكل مؤلفات ومقالات نقدية تطبيقية ، تفرد أصحابها في التحليل والدراسة . وهو ما سنشير إليه فيما ما يلي بإيجاز واختصار ، والبداية تكون من مؤلفات الغرب ودراساتهم النقدية

3:تطبيقاته

إن ما يقابل الدراسات النقدية النظرية الغربية ، دراسات تطبيقية حاول أصحابها استغلال المنهجية الموضوعاتية في نقد بعض الأعمال الأدبية ومن اشهر تلك الأعمال ن دراسات ريشار لإنتاج بعض الشعراء الفرنسيين منها : العالم الخيالي لـــ(ملارميه)(1961) وهي دراسة وقف فيها ريشار عند العناصر الأساسية المهيمنة في إنتاج الأديب "وقد أشار (بير زيما) أن ريشار في هذه الدراسة قد طوّر

المنهج الموضوعاتي حين اعتبر نصوص ملارميه جملة ذات دلالة تضيء أجزاؤها المتداخلة بعضها بعض في علاقة ديالكتيكية "23 . ومن المؤلفات الأخرى لريشار نذكر:منظر من (شاتو بريان)(1967)،(بروست)وعالم الإحساس (1974)ستاندال وفلوبير (1975) فما توصل إليه (جون بير ريشار) من نتائج أثناء تلك الدراسات نشير إلى دراسته لعالم بروست "فقد وجد ...لدى بروست ترسيمة (الزهرة) فحددها في (زهرة الغريب)، منطلقا من وجوب تحليل الزهرة كمركب أولي، (فهي نوع من الأحمر)، وكمركب حراري (فهي درجة من الالتهاب)، وكمركب حميمي (فهي زهرة حانية بذاتها ، وهي زهرة متفتحة ، منغلقة).

وهكذا تتشكل (الترسيمة)الحوافز الحسية ن وعلى هذا المستوى العملي يمكن تصنيف ودراسة كافة (الترسيمات) الحوافز و(الموضوعات) ."24 ففي هذا النموذج يظهر تتبع ريشار لحافز متكرر في أعمال الأديب وهو عنصر الزهرة الذي نلون شكله المعنوي وتتعدد مفاهيمه حسب السياقات التي فسر الناقد على ضوئها تعدد الدلالات بتعدد مفاهيم هذا الحافز.

أما (فيبر) عندما طبق منهجه الجذري (الموضوعاتي) على أشعار (دوفنيي) فقد توقف عند موضوع (الساعة) فاعتبره حافزا شخصيا ملحا ، وأنّ مسرحيته (شاترتون) ما هي إلا مواجهة لمأساة الزمن الضائع والساعة المنتصرة .

ومن الحوافز الأخرى التي كشفها لنقد الموضوعاتي في دراساته لأعمال بعض الأدباء ، نشير إلى حافز (الطير) الذي وقع في الفخ ، او الطير المحتضر ، فهو حافز ملح متكرر عند الشاعر مالارميه .وأنّ (برج الفئران) هو الحافز المتكرر لدى فكتور هوجو .وأنّ (الأرض اليباب) هي موضوع الشاعر المشهور

ت.س.اليوت.و(أزهار الإخفاق) هو موضوع فيرجينيا ولف ، و(إخفاق الحساسية)هو موضوع الكاتب الأمريكي الكبير ارنست همنغواي ."25

إنّ ما اشرنا إليه من أعمال نقدية ،يعد نماذج لدراسات تطبيقية غربية ، تضاف إلى أعمال لا تقل أهمية ،مثل:أعمال تودوروف في كتابه (نظرية الأدب)، وآن موريل في (النقد)وآخرون ممن استخلصوا الموضوعات الملحة أو المتكررة في نتاج الأدباء .كانت القواعد الإجرائية للمنهج الموضوعاتي وسيلتهم النقدية في التوصل إلى نتائج مبنية على قوانين جديدة خاصة في التعامل مع النصوص الأدبية .

أما مجالات المنهج في النقد العربي فسنعرض لها مستأنسينا بالعلاقة التاريخية التي تعودنا من خلالها ربط كل ما هو جديد بمبدعي الغرب ومخترعيه ،ثم نبحث عن مدى تأثر العربي وإخلاصه في ذلك التأثر .

تكاد تنعدم الدراسات النقدية العربية التي اتخذت من المنهج الموضوعاتي وسيلة في التحليل ،اللهم إلاّ بعض المحاولات النظرية التي اعتمدت الترجمة وسيلة في إيصال مفهوم هذا المنهج للقارئ العربي، إذ يعد الدكتور عبد الكريم حسن أحد نشطاء هذا المنهج ، فقد تجلى نشاطه في وضع كتاب سماه (المنهج الموضوعي) جزء منه تضمن أراء نظرية ركز فيها المؤلف على منهجية ريشار في الدراسة الموضوعاتية والبنيوية ، في حين افرد الجانب التطبيقي لدراسة شعر السياب ، حيث حاول تحديد التيمات الأساسية المهيمنة على دواوينه الشعرية التي اعتمد في تحليلها النهج الموضوعاتي .كما اخضع الحبيب مونسي المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي إلى الدراسة الموضوعاتية وهي دراسة حرص صاحبه على تتبع بض التيمات في الشعر العربي الجاهلي لكن دون إدراك لوحدات إجرائية معينة .

ومن الدراسات الأخرى التي اتخذت من المنهج الموضوعاتي وسيل نقدية، نذكر عمل الدكتور (مختار حبار) في دراسته لشعر أبي مدين التلمساني حيث خصص فصلا للتشكيل الموضوعاتي حاول فيه رصد التيمات المهيمنة على معاني الموضوعات الصوفية للشاعر .26 غير ذلك لا نكاد نعثر على دراسات تطبيقية ذات بال ، حتى مع السعيد علوش (النقد الموضوعاتي)وحميد لحمداني في(سحر الموضوع) فهي دراسات يغلب عليها الطابع النظري الانطباعي ، لأنّها تفتقر إلى منهجية تطبيقية واضحة .

وقد تعود ضحالة تلك الدراسات في عمومها إلى صعوبة التطبيق للخطوات الإجرائية التي يلتزم بها الناقد الموضوعاتي في تحليل النصوص وكشف معانيها ، وأيضا نرجعها إلى عدم تبلور المفهوم الموضوعاتي في النقد العربي بشكل واضح .

مراجع البحث:

1.انظر anne maurel la critique p 57.

2. الطاهر روانية .القراءة الموضوعاتية للنص الأدبي ص 66

3.نظرية يونانية قديمة ، مفادها ان عناصر الطبيعة الاربعة هي الهواء الماء التراب النار، وتعتبر بداية الفلسفة الطبيعية اليونانية

4.عبد الكريم حسن .المنهج الموضوعي ص24

5.الظواهرية فلسفة معاصرة ، اعتبرت الظواهر الطبيعية والانسانية ظاهرة تسترعي الإنتباه ، فقالوا بوجود علاقة تداخل بين الذات والموضوع وفق خاصية القصد والنزوع

6.الطاهر روانية القراءة الموضوعاتية للنص الأدبي ص67

7. anne maurel la critique p57

8. عبد الكريم حسن .المنهج الموضوعي ص27

9.محمد عزام .وجوه الماس ص الويب www.awu-dam.org

10.فؤاد ابو منصور.النقد البنيوي الحديث ص 195.196

11. فؤاد ابو منصور.النقد البنيوي الحديث ص197

12.حميد لحمداني سحر الموضوع ص25

13. النقد المداري : استعمل هذا المصطلح سامي سويدان في ترجمة كتاب تودوروف(نقد النقد)

15 النقد الجذري : ترجمة فؤاد ابو منصور في حواره مع الناقد الفرنسي ريشار في كتاب(النقد االبنيوي الحديث)

16.النقد التماتي : تعريب المصطلح الأجنبي thematique

17.انظرanne maurel la critique p58

la théorie de la littérature p268.18

19. محمد عزام .وجوه الماس ص الويب www.awu-dam.org

20. عبد الكريم حسن .المنهج الموضوعي 46.47 نقلا عن p.richard. l'inverse imaginaire malarmie.P 24

21. انظر مختار حبار شعر ابي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)

22. انظرanne maurel la critique p53

23.انظر بير زيما التفكيكية دراسة نقدية ص86 87

24. عبد الكريم حسن النهج الموضوعي ص53

25.استعمله محمد عزام في (وجوه الماس البنيات الجذرية)

26. مختار حبار شعر أبي مدين التلمساني ف 2

***